وما زلتُ أتلطف بك يا قلبي وأترفق ، وهل سادقتُ من سادقتُ من كبار الكتاب والشعراء إلا لأزفّ إلى حماك كرائم المعانى ؟

ولكنك — مع فضلي عليك — تلقاني باللؤم فى بعض الأحيان

وإلا فما هى حجتك فى الهيام بعروس الزمالك ؟

عرفتُ حجتك يا قلبي ، أنت تريد أن تصدنى عن الحتف الذى ينتظرنى في البلد الذى أعرف وتعرف

أنت تريد أن تصدنى عن « الحبيبة الوفية » التى ترسل بعض جدائلها المعطرة فى كل خطاب ولم تظفر منى بجواب ، شكر الله فضلها الجميل وعفا عنى

عرفت حجتك يا قلبي ، فأنت تريد أن تقول :

ويحسبُ نسوانٌ من الجهل أنني إذا جئتُ إياهن كنتُ أريدُ
فأقسم طرفى بينهن سَوِيَّةً وفى الصدر بونٌ بينهن بعيدُ

أتريد أن تقول ذلك ؟ وكيف وأنا أحب معك عروس الزمالك ؟

أحبها من أجلك يا قلبي ، وأحبها لأنها حية الاسم الذى تعرف وأعرف

أحب التى هنا والتى هناكَ ، وأطلع كما يطلع القمر بكل سماء ، وأهيم هيام النسيم بجميع الحدائق والبساتين

ولكن متى تجيب صاحبة الجدائل المعطرة يا قلبي ؟

حدثنى متى تجيب ، فقد يحملها اليأس على الصدود

أيها الجمال

تحدث ولا تقل غير الحق

هل عرفتَ قلباً أشرف من قلبي ، وضميراً أطهر من ضميري ؟

وأنت أيها الليل

هل عرف المحبون من أسرارك ماعرفتُ ؟ وهل استصبحوا بظلامك كما استصبحتُ ؟

« مصر الجديدة » زكى مبارك

مقالات فى كلمات

للأستاذ محمود غنيم

الحياة والأمل

قالوا : إن فرعون حينما أراد أن يبلغ الأسباب ، أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، هيء له هامان ذو أربعة أعمدة، ثم علق فى أسافل تلك الأعمدة أربعة نسور خماص ، وفى أعاليها أربعة حملان مسلوخة الجلود ، ثم استقل فرعون التابوت فانطلقت النسور تشق أجواز الفضاء، تمنى نفسها عبثاً بذلك اللحم الغريض، ثم كان من أمرها ما كان

وما أظن أن فى هذه الحياة إلا أشبه بتلك النسور ، وما أظن الغاية التى نسعى إليها أقرب من تلك الحملان ، مع تعديل طفيف فى طرفى التشبيه ، فنسور فرعون تسعى وراء أمنية لا يتسنى تحقيقها ، ونحن كلما تحققت لأحدنا أمنية أسلمته إلى أخرى ، وهكذا يقضى الانسان عمره وراء سلسلة من الآمال متصلة الحلقات غير متناهيتها ، حتى يخر صريعاً وأمانيه حوله ، وقد حال بينهما من الموت سد منيع

هذا طالب ينشد شهادة ، وهذا حامل شهادة ينشد راتباً ، وهذا ذو راتب يريد أن يتضاعف ، إلى آخر تلك السلسلة التى لا تنتهى حلقاتها

ثم هذا شاب يريد أن يتزوج ، وهذا زوج يريد أن يتعجل ، وهذا ناجل يريد أن يرى أنجاله رجالاً ، إلى آخر تلك السلسلة التى لا تنتهى حلقاتها

ثم هذا قائد يريد أن يكون وزيراً ، وهذا وزير يريد أن يكون أميراً ، وهذا أمير يريد أن يوطد نفوذه أو يوسع رقعة ملكه قالوا لنابليون ذات عشية إذ كان يرصد فى السماء الأنجما
بعد افتتاح الأرض ماذا تبتغى ؟ فأجاب أنظر كيف أفتتح السما ؟

الحياة نار مشبوبة وقودها الأمل ؛ وهى قطار ، وهو بمنزلة البخار ، وإن للطبيعة فى خداع الناس عن هذا الطريق أفانين ، فهى تزين للانسان الغاية من الغايات ، فيدمى إخمصيه سعياً وراء

تحقيقها ، حتى إذا جاءها لم يجدها شيئاً ، فتلوح له بأخرى ، وهكذا يقضى الانسان حياته فى سعى متواصل ، وهى لا تتورع فى هذا السبيل عن خداع الناس بالحق وبالباطل ، وعندها لكل صنف من الناس صنف من الآمال يخلب لبه ويغريه ببريقه . أرأيت ذلك الشيخ المحطم الذى يقف بإحدى قدميه على حافة القبر ، والذى لا زوجة له ولا عقب يرث ما له من مال أو لقب ؟ لقد اخترعت الطبيعة له شيئاً يقال له طيب الأحدوثة ، وخلود الأسماء بعد الفناء ، فأجهدته فى شيخوخته المحطمة ولم تدعه يقضى أيامه المعدودة فى أمان واطمئنان

قرأت فى بعض المجلات أن الامبراطور غليوم لا يزال يمنى نفسه بالعودة إلى عرش ألمانيا ، وأنه لا يزال يترقب اليوم الذى يثوب فيه الشعب الألمانى إلى رشده ، فيستدنيه من منفاه ، ويسلم إليه مقاليد الأمور . ولعلك لا تعلم أن المحكوم عليهم بالاعدام لا ييأسون من الخلاص حتى ساعة التنفيذ ، ولهم فروض لا تخطر بالبال ، تنتهى كلها إلى غاية واحدة هى النجاة

إنها الطبيعة ، الطبيعة التى سلحت النساء بالنعومة والجمال لإغراء الرجال ، والتى سلحت الزهر بطيب العرف وألوان الطيف ليجذب الطيور فيشاطر الريح حمل حبوب التلقيح . هى هى التى حاكت لنا خيوط الآمال ، لنتعلق بها فيعمر الكون ، ويسير نحو الكمال

فليت شعرى ، ماذا يدعوها إلى ذلك كله ؟ أهو شىء لا نعلمه ؟ أم لا شىء ؟

الإيمان بالحظ

قال صديقى فى تهكم : ألم يبلغك نبأ التعيينات الجديدة ؟

قلت : لا ، وماذا يعنيك من أمرها ؟

قال : إن بين المعينين مدرساً جديداً ، كان بالأمس لى من الأولاد ، فأصبح الآن من الأنداد

قلت : وماذا فى هذا ؟

قال : فيه شىء كثير ، فقد كان صاحبنا هذا هدفاً لسهام المعلمين — وأنا من بينهم — وكان المثل فى كساد الدهن ، وقلما وقعت عينى عليه إلا نائماً أو متثائباً . وكنت أعتبره « ترمومتر » الفصل ، ما فهم أمراً إلا اعتبرته مفروغاً منه مفهوماً من الجميع

قلت : هون عليك ياصديقى ، وماذا أنت فاعل إذا جاءك هذا التلميذ النؤوم غداً يفحص أعمالك ، ويقف منه موقف المسؤول من السائل ، تتلقى إرشاداته ، وتتقبل نصحه بقبول حسن ؟

إنك ياصديقى لا تؤمن بالحظ ، أما أنا فانى مؤمن قوى الايمان به . أعتقد أن للجد (بفتح الجيم) المرتبة الأولى فى تصريف الأمور ، وللجد (بكسر الجيم) المرتبة الثانية ، فلو شبهنا العالم بفلك لكان الأول بمنزلة الربان ، والثانى بمنزلة السكان

لعل التربة التى أنبتت نابليون — أنبتت من أمثاله عشرات لهم مواهبه ومقدرته على تعبئة الجيوش ، وتسلق الجبال ، واختراق البحار ، ولكن أحدا منهم لم يمهد له الحظ ما مهد لبونابرت من الأسباب . ولو أتيح له ذلك لكان نابليونا ثانيا يصرف ملوك أوربة تصريف قطع الشطرنج ، ويلعب بمجيئها كما يلعب الأطفال بالصلصال

إن الحظوظ والمصادفات تلعب دوراً هاما فى تاريخ الجماعات بله الأفراد . ومن يدرى ماذا يكون مصير مصر لو لم يقع مارك أنطوان فى حب كليوباطرة ؟ وماذا يكون مصير الاسلام لولم يتح للمسلمين التغلب فى بدر ؟ بل ماذا كان يكون مصير البشرية جمعاء لولم تهف نفس حواء إلى شجرة الحنطة أو التفاح ؟

إذا قلت ياصديقى : إن الرجال يسعدون أو يشقون بما يقدمون من أعمال ، فما بال الأطفال ، يولد أحدهم فى الغربال ، وتدق لثانيهم البشائر قبل مولده فاذا استهل وجد عرشا يمهد له ، وأمة تراض على طاعته ، وتهافتت عليه المراضع ، وترامت على أقدامه الحواضن ؟

إن الانسان ياصديقى ليقضى زهرة شبابه فى كد وتحصيل ، ثم يسعى حتى يتقطر الدم فى سبيل الوصول إلى منصب يدر عليه فى عام ما يتقاضاه بعض المطربين فى يوم من الأيام ، فهل كون المطرب صوته ، وخلق لهاته بيديه ؟

وماذا عملت الفتاة تخلع عليها الطبيعة مسحة من جمال ، فيتهافت على بابها من الخطاب وفود ، بينما لا تجد أختها زوجا من عود ؟

وبعد ، فاذا قلنا : إن الملوك قادوا الجيوش فتبوؤا العروش ، فعلى أى أساس شرف الله — جلت حكمته — برسالته أناسا من الدهماء ، فجعلهم أنبياء ، وبشر بهم قبل ميلادهم بمئات من السنوات ؟

قال صديقي : الآن آمنت

قلت : إذن استرحت

الذوق والشعر

تتناول قطعة من التفاح فتحس لها طعما لذيذاً ، ثم لا يطالبك إنسان أن تقدم على أنها دليلا ، ولو حاولت ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وتشم عبير الزهر ، فتقول : إنه طيب ، ولو سئلت : لماذا هو طيب ؟ لم تجد جواباً . وتسمع عزف الموسيقى أو خرير الغدير أو سجع الطيور ، فتقول : صوت شجي ، ولكن لماذا هو شجي ؟ لست تدري ولا العجم يدري . وتستطيع أن تقول مثل ذلك في كل منظر جميل يقع طرفك عليه ، فلا يطالبك إنسان بتعليل جماله ، ولو فعلت لطال بك البحث والتدليل ، دون أن تنتهي إلى تعليل

ولكنك حين تستطيب قطعة من النظم طالبك النقاد بإيراد العلل والأسباب ، كأن طيب الشعر في الذوق غير طيب التفاح في الفم ، والزهر في الشم ، والموسيقى في السمع ، والحسن في العين

إنه الذوق ، ثم الذوق وحده ، الذوق الذي يجعلك تتشهى طعاماً وتعاف آخر ، هو الذي يجعلك تسيغ شعراً وتنفض بشعر ؛ وهو الذي يقسم القافية إلى قافيتين ، إحداهما تشج الجبين ، والثانية أندى على الأكباد من العذب البراد ؛ وهو الذي يقسم دواوين الشعراء إلى قسمين ، أحدهما للخلود ، والثاني للوقود

لا يخضع الشعر لمنطق النقاد ، فاعتبر كل ما صح من أقيستهم في ذلك سفسطة لا طائل تحتها . وكم من شعر هوجم واستعملت في مهاجمته أسلحة الأقيسة والبراهين ، وآخر ناصرته تلك الأسلحة ذات الثاني في مهده ، وبقي الأول خالداً ، تتداوله الرواة ، وتتناوله الشفاه ...

أرأيت لو قال لك قائل : إن صوت الجمل أشجى من صوت العصفور لأن الأول ألذ طعما وأكبر حجما ، وأوفر شحما ولحما ، أو قال لك : إن ريح البصل أطيب من ريح الزهر لأن الثاني مر الطعم ، سريع الذبول ، لا يصلح الطعام بخلاف الأول . أرأيت لو قال لك قائل ذلك هل تصيخ إليه ؟ إنه لم يكذب ولكنه لن يجد له سميعاً

من هذا القبيل قولهم : إن هذا الشعر حافل بالمعاني الفلسفية ، والنظريات الفكرية و ... و ... ثم هو مع ذلك لا يحرك مشعراً من مشاعرك ، ولا يمس وتراً من أوتار قلبك ، بل يسمعه النائم فلا يستيقظ ، والصاحي فينام . وهبه نافعاً كما يقولون ، فما مثله مع ذلك إلا كمثل « زيت الخروع » يستمد من شره الانسان ، وإن صحت به الأبدان

حاول ما استطعت أن تعالل سر الجاذبية في الشعر ، فسوف يعييك البحث . لن تستطيع رجعها إلى لفظ ولا إلى معنى ، فرب لفظين مترادفين أحدهما يقيم البيت ، وثانيهما ينقضه من أساسه . ورب معنى واحد في بيتين ؛ أحدهما يثير الاعجاب ، والثاني يثير السخرية والاستهزاء

أيها القارئ ، إذا تلاءم الشعر وذوقك فخذه ، وإلا فدعه ، فان قبح الأول لك مقبح ، أو حسن الثاني لك محسن ، فاهزأ بقوله ، واضحك منه ملء شدقيك ، ثم استفت قلبك

إنني أومن بالذوق ، ولكنني بجانب ذلك لا أجحد أن الأذواق تختلف ، وأن منها الفاسد الذي لا يصلح للحكم ، بيد أن الذوق على ما به من هنات لا يزال في نظري أصلح المعايير التي يقاس بها الشعر ، فينبغي أن نعول عليه ، وعليه وحده ، حتى نهتدي إلى مقياس محسوس تقاس به المعنويات ، كما تقاس الحبوب بالقدح والصاع ، والأطوال بالباع والذراع

(كوم حمادة) محمود غنيم

التصوف الإسلامي

في الأدب والأخلاق

بقلم الدكتور زكي مبارك

يقع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين وثمنهما معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة في البلاد العربية

ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة